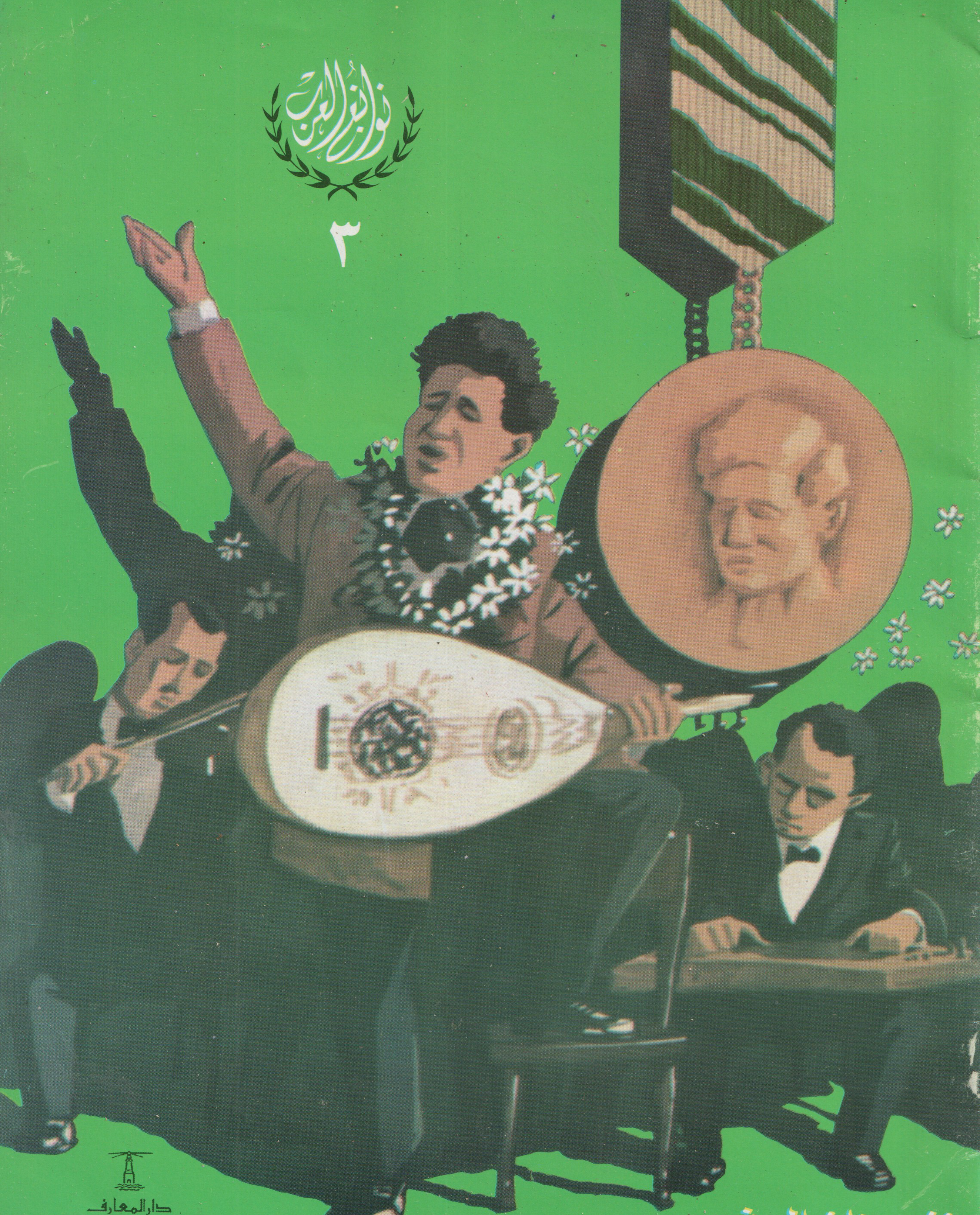
نوابغ العرب

٣



دار المعارف

فنان الشعب

سيد درويش

بقلم : محمود عوض

وبريشة : مصطفى حسين

نوابغ العرب

٣

سيد درويش

فنان الشعب

بقلم : محمود عوض

بريشة : مصطفى حسين

الطبعة الثالثة

دار المعارف

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

عوض ، محمود
سيد درويش: فنان الشعب / بقلم محمود عوض؛
بريشة مصطفى حسين — ط ٣ - القاهرة : دار المعارف ، ٢٠٠٦.
٢٠ ص ؛ ٢٨ سم — (نوابغ العرب ؛ ٢)
تدمك : ٦ — ٧٠١٥ — ٠٢ — ٩٧٧
١ — الموسيقيون المصريون.
٢ — درويش البحر ، السيد ، ١٨٩٢ — ١٩٢٣.
(أ) حسين ، مصطفى (رسام).
(ب) العنوان

ديوى ٩٢٧,٨

رقم الإيداع ٢٢٥٦٩/ ٢٠٠٦ — ٧/٢٠٠٦/٦٣

تنفيذ المتن والغلاف
بقطاع نظم وتكنولوجيا المعلومات
دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة - ج . م . ع
هاتف : ٥٧٧٧٠٧٧ - فاكس : ٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

سيّد درويش

عندما دقّ جرس المدرسة فى صباح ذلك اليوم من أيام سنة ١٩٠٠ ، اصطف التلاميذ فى الصفّ الصباحى ، وبدءوا ينشدون معًا :

يا مليكًا بالسجايا الغر ساد بالعلا والعدل أرضيت البلاد
جئتنا بالنصر والفتح المبين ووقيت الناس شر الظالمين
فاغتنم صفو الليالى والزمان وليلاق الضد أنواع الهوان

وكان بين التلاميذ تلميذ صغير فى الحادية عشرة من عمره، يردد هذا النشيد مع باقى التلاميذ صباح كل يوم فى فناء المدرسة . ومع أنه كان يردد النشيد بشكل أوقع وأحسن من باقى زملائه ، فإنه كان يحس أن هذا النشيد – مثل أناشيد أخرى كثيرة – نفاق رخيص للحكام ، وعلى رأسهم الخديو عباس الثانى الذى تردد هذه الأناشيد تحية له .

كان اسم هذا التلميذ : سيد درويش .

ولد سيد درويش فى ١٧ مارس سنة ١٨٩٢ . وكانت أسرته واحدة من آلاف الأسر الفقيرة التى تسكن فى حى « كوم الدكة » بمدينة الإسكندرية .

كان أبوه « المعلم درويش البحر » يملك محلاً صغيراً للنجارة ، وكانت حياته كلها تنحصر بين هذا المحل ، ومنزله الذى يقع على بعد أمتار منه ، حيث تسكن أسرته المكونة من زوجته الحاجة « ملوك » ، ومن أولاده : فريد وستوتة وزينب وسيد .

وعندما كان المعلم درويش يحس بفراغ لديه ، كان يأخذ معه « سيد » إلى المقهى القريب فى الحى . . حيث يتجمع الأصدقاء فى المساء يتسامرون ويتبادلون الذكريات والأحاديث .

وكان الطفل الصغير « سيد » يستمع إلى هذه الأحاديث ، وهى تدور غالبًا عن الأحوال السياسية . لم يكن « سيد » يفهمها ، ولكنه يستمع إليها . . فقد كانت كلها تدور حول أخبار الإنجليز الذين يحتلون مصر ، ويراهم الناس فى مدينتهم – الإسكندرية ، حيث يتركزون فى « طابية كوم الدكة » . وفى أحيان أخرى كانت الأحاديث تدور حول أخبار الزعيم الشاب مصطفى كامل ، الذى بدأ صيته يجوب أنحاء البلاد ، بحسبانه رمزاً لرغبة المصريين فى الحصول على استقلالهم والتحرر من الإنجليز .

* * *

ولكن هذه الأيام والليالى لم تدم طويلا بالنسبة للطفل الصغير « سيد » . فقبل أن يصل إلى سن السابعة . . توفى أبوه .

وكانت هذه صدمة كبرى بالنسبة للطفل الصغير .

عاشت الأسرة الصغيرة معًا فى رعاية الأم « الحاجة ملوك » .

أما صبينا الصغير « سيد » . . فإنه كان يذهب فى البداية إلى « كُتّاب حسن حلاوة » . ولم يكن يخفف عليه الدراسة هناك سوى مدرّس اسمه « سامى أفندى » كان يهوى حفظ الأناشيد . . ويهوى تلقينها لتلاميذه الصغار .

ومن هذه السن المبكرة بدأ « سيد » يهوى ترديد الأناشيد وحفظ ألحانها ونغماتها .

وعندما انتقل « سيد » إلى مدرسة « شمس المدارس » بحى رأس التين بالإسكندرية ، أسعدته المصادفة أيضاً بوجود مدرس آخر هو « نجيب أفندى فهمى » . . كان مشغوفاً هو الآخر بتلقين تلاميذه مختلف الأناشيد والألحان ، فساعد التلميذ الصغير كثيراً على تنسية هوايته المفضلة .

ولكن أسرة « سيد » وأهله كانوا يتمنّوْن رؤيته شيخاً معمماً ، على عادة معظم الأسر فى ذلك العصر . فقد ألحقوه وهو فى الثامنة من عمره بالمعهد الدينى بالإسكندرية ، حيث بدأ يتعلم تجويد القرآن وتلاوته وحفظه ، ويرتدى الزى المعمم ، وأصبح أصدقاؤه من الآن ينادونه بلقب « الشيخ سيد » .

ولكن الفتى المعمم كان متعلقاً بهوايته إلى درجة أنه كان يذهب إلى الموالد والحفلات والأفراح التى لا يخلو منها حى « كوم الدكة » بالإسكندرية كل ليلة . . لكى يشبع تعطشه لسماع القصائد والتواشيح والأغانى والألحان .

وكان من الطبيعى أن يؤدى هذا إلى إهمال الفتى الصغير دراسته وانشغاله عنها . . وقد أدّى ذلك إلى صدور قرار من المعهد الدينى بفصله نهائياً من الدراسة ، قبل نهاية عامه الدراسى الثانى .

* * *

والآن . . أصبح الفتى الصغير فى مفترق الطرق وبدأت الأمواج تتقاذفه يميناً ويساراً .

إن الأمل يراود أهله فى أن يصبح ابنهم شيخاً معمما يقرأ القرآن ويؤم الناس فى الصلاة . . ولكن الفتى نفسه يحلم أن يصبح مطرباً وملحناً مشهوراً يتحدث عنه الناس .

وزاد الطين بلة أن أسرته اختارت له عروساً لكى يتزوج مبكراً — بحكم العادات المنتشرة فى ذلك العصر . وقد أدى زواجه بها فى سن السادسة عشرة إلى زيادة حيرته وهمومه أضعافاً مضاعفة ، فلقد أصبح عليه أن يجد طعامه وطعام أسرته . . بالإضافة إلى أن عليه أن يساعد أسرته الفقيرة لو أمكن ذلك .

إن قيام هذا الشاب المعمم أحياناً بإحياء ليالى الموالد والأفراح والإنشاد فيها . . لم يكن يوفر له النقود التى تكفى طعامه هو . . فما بالك بأسرته ؟

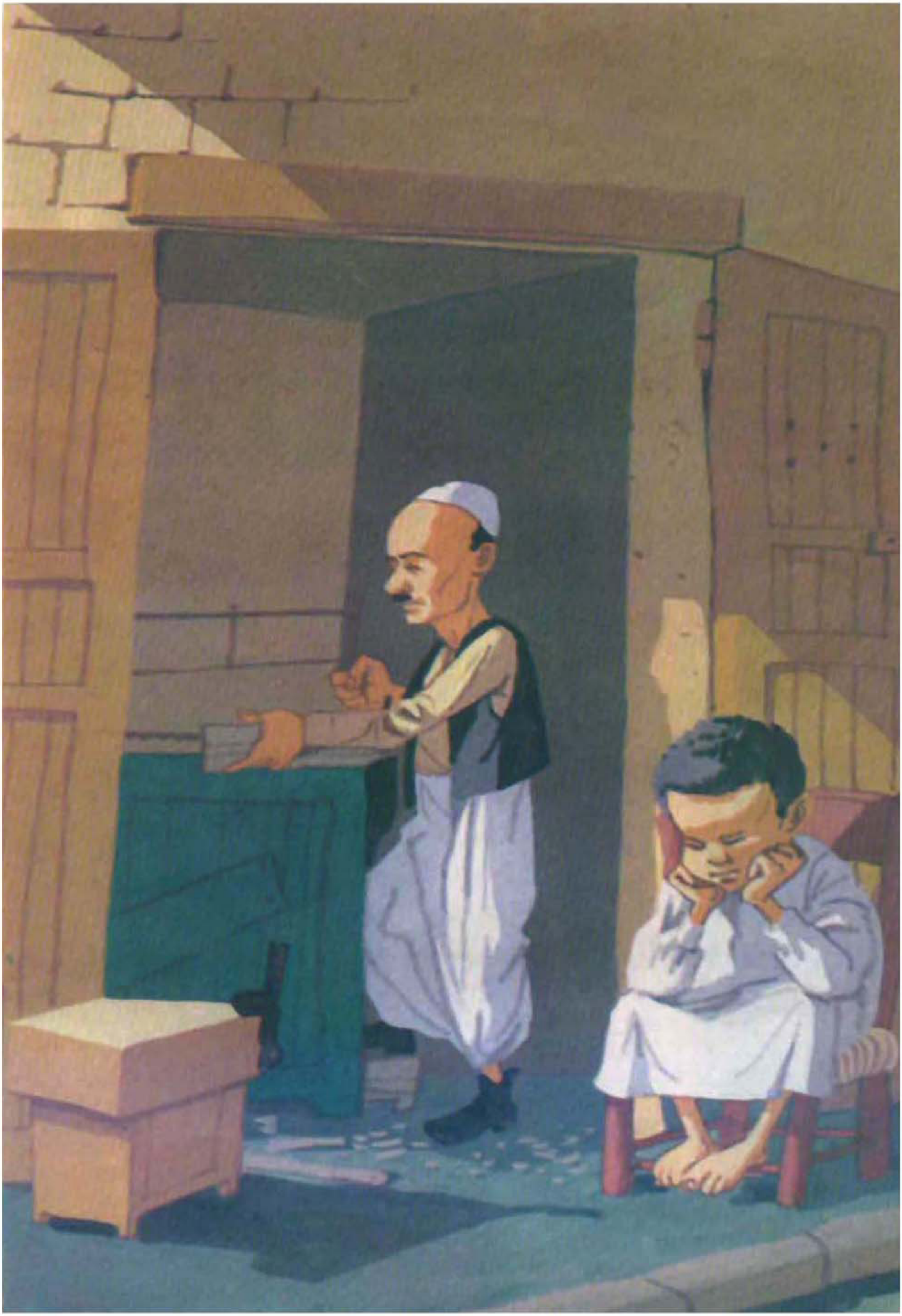
واضطر الشاب المعمم — بحكم فقره — إلى أن يشتغل عامل بناء . . لكى يكسب قوته وقوت أسرته ، وبدأ يرتدى جلباب العمل لكى يزاول مهنته الجديدة كعامل يطلى جدران المنازل . وفى أثناء عمله كان يردد على أسماع زملائه عمال البناء ألواناً من الأغانى والألحان التى يحفظها . وعندما اكتشف العمال أن الأغانى العذبة التى يرددها « سيد » على مسامعهم تضاعف إنتاجهم وتدفعهم إلى مزيد من العمل ، أعفوه من عمله اليومى مقابل تفرغه للترفيه عنهم بغنائه .

واستمر سيد على هذه الحال . . إلى أن ساق له القدر مفاجأة كبيرة !

كان سيد يزاول عمله اليومى كالمعتاد ، زملاؤه يعملون فى البناء . . وهو يغنى لهم ويرفه عنهم . ثم جاءه صبى من المقهى المجاور للمبنى يناديه : تعال كلم . .

— أكلم مين ؟

— واحد عاوزك .



لقد شاءت المصادفة أن يكون جالساً فى المقهى يومها رجل اسمه « أمين عطا الله » ، كان ممثلاً سورياً مشهوراً وقتها . . وفى الوقت نفسه كان صاحب فرقة للتمثيل والغناء .

وبينما أمين عطا الله يجلس فى المقهى . . إذا به يستمع إلى صوت شد أذنيه من أول لحظة .

وبحث « أمين » عن صاحب الصوت إلى أن جاءوا له بالشيخ سيد .

وسأله أمين : هل أنت تهوى الغناء ؟

أجاب سيد : أهواه ؟ إننى أعشقه . إنه الشىء الوحيد الذى يخفف عنى متاعب هذه الحياة ، وهذا العمل الشاق .

– وهل تفضل الاشتغال بالغناء على هذا العمل الشاق ؟

– طبعاً .

– إذن ، مارأيك فى أن تعمل معى فى الفرقة التمثيلية التى أملكها . . وتغنى للمتفرجين بين فصول الروايات ؟

***

هكذا انتقل « سيد » إلى عمله الجديد . وفى خلال أسبوع كان قد سافر مع الفرقة إلى الشام فى رحلة حسبها رحلة عمره .

إن عمر « سيد » عندما قام مع الفرقة بهذه الرحلة كان ١٧ سنة ، ولكن أحلامه كانت بغير حدود . كان يأمل فى أن تكون هذه الرحلة نقطة فاصلة فى حياته . . وأن تكون بداية جديدة لتحقيق أحلامه فى الغناء والموسيقى .

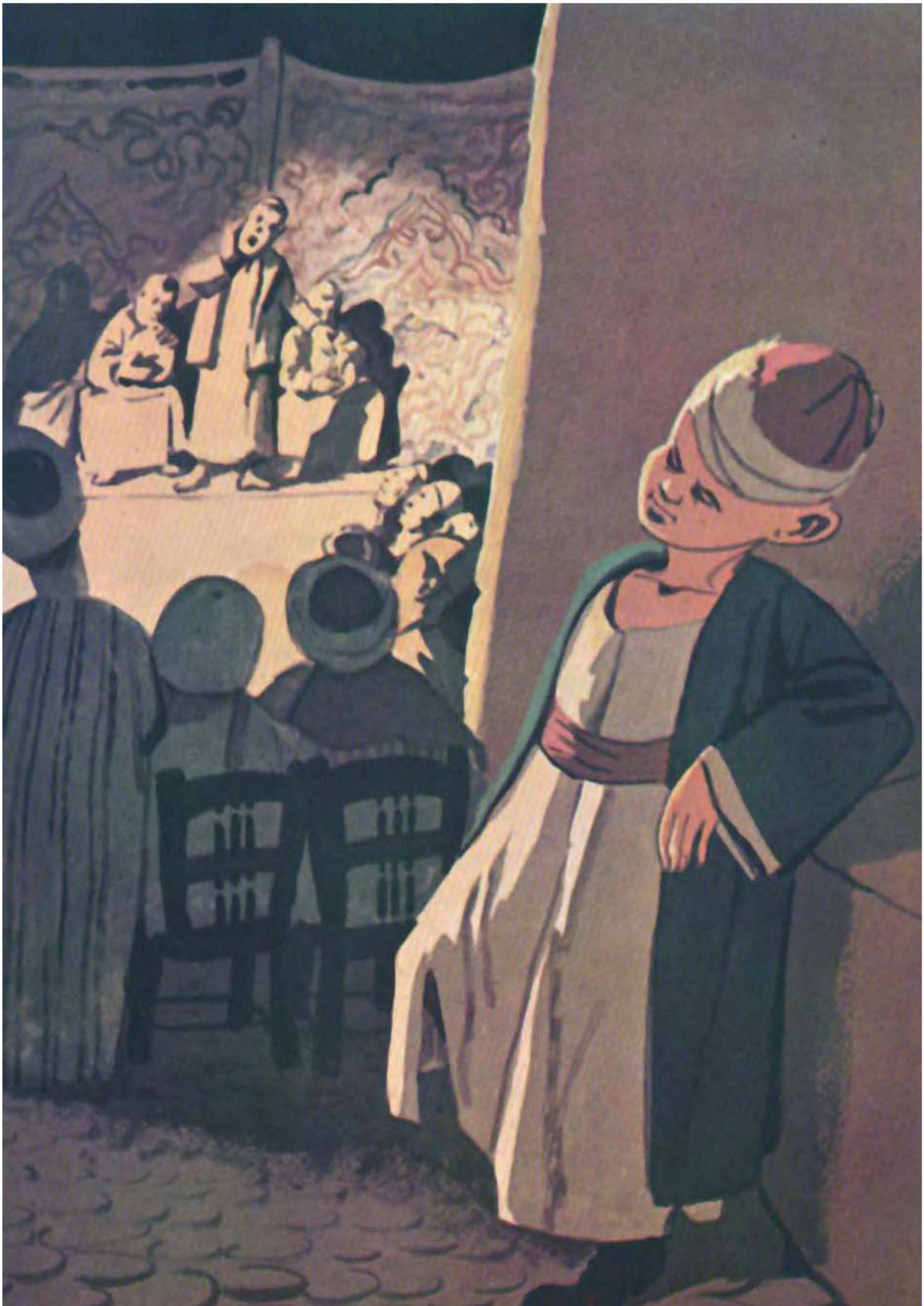
ولكن القدر لم يستجب فى هذه المرة لأحلام « سيد » . فقد أخفق فى الرحلة تماماً ، وعاد إلى الإسكندرية بعد عشرة أشهر بغير حلم واحد يحققه . . أو مليم واحد يكسبه . إن الشىء الوحيد الذى حققه هو تعرفه على الأغانى والألحان المنتشرة فى الشام ، وهو أمر قد لا يساعده الآن . . ولكنه سيساعده كثيراً فى المستقبل .

***

لقد كان إخفاق « سيد » فى رحلته هذه مسوّغاً لوقوف أهله وأسرته فى وجهه وإرغامه على ترك هوايته التى يحلم بها ، وهى هواية لم يوافقه أحد منهم عليها منذ البداية . وعندما أقسم زوج أخته الكبرى على ألا يدخل « سيد » منزله إلا إذا اعتزل الغناء تماماً ، اضطر « سيد » إلى التضحية بهوايته . . وبدأ يعمل كاتباً فى محل الأثاث الذى يملكه زوج أخته .

ولكن الفرصة التى أخفق فيها عادت لتكرر نفسها بعد أربعة أشهر . لقد فقد سيد درويش صبره فى عمله الجديد ، فذهب إلى فرقة « أمين عطا الله » وانضم إليها . . وسافر معها إلى الشام مرة أخرى .

***



فى هذه المرة اختلف حظ « سيد » كثيراً عن الرحلة الأولى . لقد استمر فى هذه الرحلة سنتين كاملتين ، استمع فيها إلى مئات من الألحان التى يرددها الناس فى الشام . وعندما عاد إلى الإسكندرية فى سنة ١٩١٤ كان قد أصبح أكثر نضجاً وأعمق معرفة . لقد أجاد الغناء وتعلم العزف على العود واستمع إلى مئات الألحان ، وبدأ يؤلف هو ألحاناً جديدة ويقدمها بصوته وموسيقاه فى الأماكن الوحيدة الممكنة فى الإسكندرية ، وهى المقاهى الكبرى .

لقد كان « سيد » يغنى ويعزف على العود وسط طائفة محدودة من الموسيقيين اختارهم بنفسه ، منهم من يضرب الرقّ ، ومنهم من يعزف على الكمان ، ومنهم من يعزف على الناى ، أو يعزف على « القانون » ، ومنهم من ينشد أو يردد المقاطع المتكررة فى الأغنية . وعند ما كان سيد يضع لحناً جديداً من تأليفه ، كان يستعين بمن يدون له اللحن على نوتة موسيقية لأنه لم يكن قد تعلم بعد أصول كتابة النوتة الموسيقية .

وفى مرة جاء إلى الإسكندرية الشيخ « سلامة حجازى » ، وهو مطرب مشهور ولد فى الإسكندرية ، ثم تركها إلى القاهرة حيث اشتهر فيها وأصبح صاحب فرقة تمثيلية غنائية مشهورة بها ، فاكتشف أن الناس يتحدثون عن ملحن ومطرب شاب بدأ يحوز إعجابهم بسرعة فائقة .

وقرر الشيخ سلامة أن يذهب إلى حيث يغنى الفنان الشاب ويستمع إليه . وما إن سمع غناءه حتى عرض عليه السفر معه إلى القاهرة ، لكى ينضم إلى فرقته ويعمل بها .

* * *

سافر « سيد » مع الشيخ سلامة ، وبدأ يستعد للغناء بين فصول الرواية .

وفى الليلة الأولى فوجىء سيد بما لم يتوقعه : لقد قابله الجمهور بالصفير والصياح والاستهجان !

وعندما فوجىء الشيخ « سلامة حجازى » بهذا الاستقبال السيّء من الجمهور للفنان الشاب ، خرج من وراء الستار لكى يرجو الناس الهدوء والاستماع إليه ، ولكى يقول لهم : « إن هذا الفتى هو عبقرى المستقبل . .

ولكن الجمهور لم يقتنع ، واستمر يصفر ويصيح فى وجه سيد درويش .

وفى اليوم التالى عاد سيد إلى الإسكندرية ساخطاً أشد السخط .

لم يمض وقت طويل ، قبل أن يذهب الشيخ « سلامة حجازى » إلى سيد درويش مرة أخرى فى الإسكندرية ، ومعه جورج أبيض ، وكان هو الآخر ممثلا مشهوراً وصاحب فرقة تمثيلية كبيرة ، ورجوَا الفنان الشاب أن يحاول من جديد ، وأن يقتصر هذه المرة على الألحان التى يقدمها .

وبعد عدة محاولات ، وافق « سيد » ، وبدأ يلحن أغانى مسرحية اسمها « فيروز شاه » لحساب فرقة جورج أبيض .

ومع أن المسرحية لم تلاق نجاحاً كبيراً ، فإن الفنان الشاب بدأ من يومها يشقّ طريق المجد . إنه طريق ملىء بالعقبات والصعاب ، ولكن خطوات سيد بدأت تصبح ثابتة عليه . . وسرعان ما بدأت موسيقاه وألحانه تذيع وتنتشر .

* * *



كان سيد درويش يستلهم أحلى أنغامه من الأنغام البسيطة المجهولة المصدر ، التى تتغنى بها فئات الشعب المختلفة . كان يستمع ويراقب ما يتردد من أغان بسيطة على لسان الشيالين والسقايين والباعة المتجولين والمراكبية والفلاحين والعمال وغيرهم ، لكى يحولها بعد ذلك ألحاناً وأغانى بسيطة ورائعة ، يرددها الناس كلهم من بعده .

إن صديقاً له – هو الكاتب المسرحى المرحوم بديع خيرى – كتب فى مرة يقول إن سيد درويش كان يدعوه إلى الذهاب معه إلى حى بولاق فى القاهرة ، حيث كان يقف « بائع عجوة » معين ينادى على بضاعته بصوت رخيم ونغمات عذبة . كان البائع يغنى قائلا عن بضاعته « على مال مكة – على مال جدة – مال المدينة يا شغل الحجاز » . وكان سيد درويش يقف بعيداً مع بديع خيرى لكى يستمع إلى هذه النداءات الحلوة من بائع العجوة ، واستطاع بعد ذلك أن يخلق منها لحناً عظيماً يقول « مليحة جوى الجلل الجناوى » .

وفى أحيان أخرى كان سيد درويش يستوحى ألحانه من الأغانى الساذجة التى يرددها الأطفال الصغار فى الحوارى والأزقة ، وبخاصة تلك التى يرددونها فى الأعياد والمواسم الشعبية . وقد استوحى أحد ألحانه العظيمة من أغنية كان يرددها الأطفال فى مداعباتهم مع خرف العيد .

ولقد كان من أسباب انتشار موسيقى وألحان سيد درويش أنها بسيطة وسهلة ولا تحتاج إلى أصوات قوية ترددها ، مثلما كان الحال سائداً فى الأغانى وقتها . لقد كانت الأغانى السائدة تقليداً غير كامل للألحان والأغانى التركية والإيرانية ، ولم تكن تتردد إلا فى « صالونات » العائلات التركية والأرستقراطية ، وكانت فى معظمها تدور حول الحب والغرام والهجر والألم واللوعة والفراق .

ولكن سيد درويش استطاع أن يجعل الأغانى تتناول حياة الناس البسطاء ومتاعبهم وآلامهم .

ومن الألحان التى زادت شهرتها – حتى بعد وفاة سيد درويش – برغم مرور عشرات السنين على تلحينها ، ذلك اللحن الذى تقول كلماته :

طلعت يا محـــلا نورها شمس الشموسه
يالا بنا نمـــلى ونحلب لـــبن الجاموسة

وكذلك المقطوعة المشهورة التى تقول كلماتها :

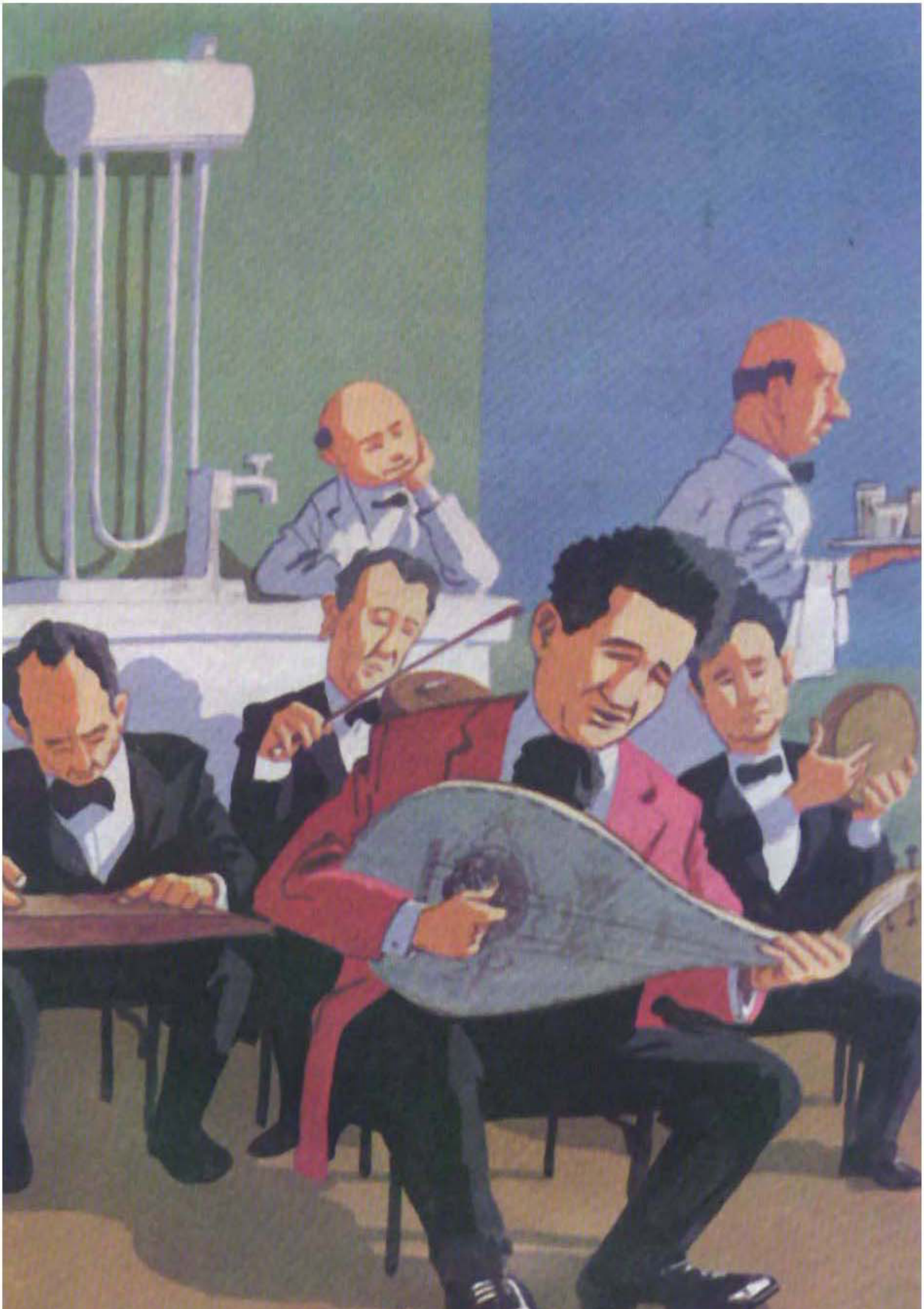
الحلوة دى قامت تعجن فى البدريه والديك بيدن كوكو كوكو فى الفجرية
يالا بنا على باب الله ياصنايعيه يجعل صباحك صباح الخير يا اسطى عطيه

إن هذه الأغانى والألحان – وغيرها كثير – تتميز بنغماتها البسيطة وكلماتها الشعبية السهلة ، وقدرة أى إنسان على أن يرددها ، وكذلك تتميز بالروح الشرقية والمصرية الصحيحة فى موسيقاها .

• • •

استطاع سيد درويش أن يعبر عن هموم وطنه وآلامه أصدق تعبير ، ومازال الناس حتى الآن يرددون النشيد الذى وضع سيد درويش كلماته وألحانه مستوحياً مطلعه من كلمات الزعيم الخالد مصطفى كامل ، وهو النشيد الذى يقول :

بـــلادى بـــلادى بـــلادى لك حبى وفـــؤادى



مصر أنت أحلى درّه فوق جبين الدهر غره
يا بلادى عيشى حرّه واسلمى رغم الأعادى

وخرج الشعب كله يردد هذا النشيد فى ثورة سنة ١٩١٩ التى قام بها ضد الاحتلال الإنجليزى .

عاش سيد درويش شبابه ليجد أن بريطانيا تحتل مصر بجنودها المنتشرة فى كل مكان . وقد أدى الاحتلال إلى انتشار التذمر والسخط بين صفوف الشعب . وكانت قوات الاحتلال قد قامت طوال سنوات الحرب العالمية الأولى بفرض الرقابة على الصحف ومنع الاجتماعات العامة وتقييد حرية الرأى ومصادرة الأملاك والثروات اللازمة لها وتفتيش البيوت والمارة بحجة المحافظة على الأمن . كما كان الاحتلال يقوم أيضاً بالاستيلاء على المحاصيل . . والخيول والبغال والجمال والحمير وكل ما يقع تحت يده من دواب للركوب والعمل ، أو ماشية للذبح . كما كانت السلطات تقوم بتجنيد العمال والفلاحين وتسخيرهم فى مد سكة حديد فلسطين من القنطرة إلى اللد والقدس وحيفا بفلسطين ، وهو خط حديدى كانت القوات البريطانية تحتاج إليه .

وقد قام سيد درويش بالتعبير عن شكاوى الناس وآلامهم خلال ألحانه وأغانيه المسرحية بشكل مستتر لكى لا تمنعه الرقابة ، ولكنه فى الوقت نفسه كان مفهوماً لكل الناس .

ومن الأمثلة على ذلك أغنية لحنها سيد درويش فى إحدى المسرحيات على لسان أحد المجندين للعمل لحساب قوات الاحتلال وتقول كلماتها :

يا عزيز عينى وانا بدى أروّح بلدى ولدى يا ولدى والسلطة خدت ولدى

وفى الوقت الذى كان سيد درويش يحارب تجنيد المصريين لحساب الإنجليز كان يستثير الروح الوطنية ويشجع التجنيد للدفاع عن الوطن ضد مغتصبيه . ومن أمثلة ذلك « لحن الجنود » فى مسرحية « الهلال » التى لحنها لحساب فرقة الكسار ، ويقول فى مطلعه على لسان الجنود :

إحنا الجنود زى الأسود نموت ولا نبعش الوطن
بالروح نجود بالسيف نسود على العدا طول الزمن

وعندما انتهت الحرب وبدأ زعماء الشعب ، وعلى رأسهم سعد زغلول ، يطالبون بالاستقلال قبضت قوات الاحتلال على سعد زغلول وزملائه وقررت نفيهم إلى خارج البلاد . . فهبّ الشعب كله فى ثورة عارمة ضد الإنجليز . ثورة اشترك فيها الشعب بكل فئاته وطبقاته . وهنا كانت ألحان سيد درويش الوطنية على فم كل مواطن ، والشعار الذى تردده كل مظاهرة ، لأنه استطاع أن يعبر بألحانه عن الروح الوطنية أصدق تعبير ، وكان فى مقدمة ألحانه هذه :

قوم يا مصرى مصر دايماً بتناديك خد بناصرى ناصرى دين واجب عليك

وتستمر كلمات النشيد إلى أن تقول :

ليه يا مصرى كل أحوالك عجب تشكى فقرك وانت ماشى فوق دهب
مصر جنة طول ما أنت فيها يانيل عمر ابنك لم يعيش أبداً ذليل

* * *



على أحد مسارح القاهرة – واسمه مسرح « برنتانيا » – كان القدر يحتفظ لسيد درويش بمفاجأة كبيرة . رأى سيد درويش كيف انتشر المسرح الغنائى فى مصر خلال تلك السنوات ، ورأى كيف يحقق أصحاب الفرق المسرحية أرباحاً طائلة من أعمال فرقهم . لهذا قرر سيد درويش أن يؤلف فرقة خاصة به . . لتقديم المسرحيات الغنائية التى يضع هو موسيقاها وألحانها .

كان هذا فى سنة ١٩٢١ ، حين قدمت فرقة سيد درويش مسرحيتها الأولى « شهر زاد » . . وكانت تلك الليلة هى ليلة الافتتاح .

وكان بطل المسرحية هو سيد درويش نفسه – مطرباً وملحناً .

وفى تلك الليلة ، كانت المفاجأة الكبيرة هى : الإخفاق !

لقد أخفقت المسرحية ، وخرج الجمهور منها ساخطاً . ومن الليالى التالية بدأ إقبال الجمهور يقل ويتضاءل .

وعندما تدارس سيد درويش الأمر مع رفقائه أقنعوه بأن الإخفاق يرجع إلى أن صوته هو . . الذى لم يتقبله الجمهور . لقد قالوا له : إن الألحان رائعة ، والرواية عظيمة . . لماذا لا تجرب مطرباً آخر من أصحاب الأصوات الرقيقة .

سألهم : زىّ مين ؟

– زى مطرب جديد اسمه محمد عبد الوهاب . . مثلا .

واعترض سيد درويش قائلا : ولكن صوته ما يزال رقيقاً كالبنات . .

– على العموم يا شيخ سيد الناس ما بتحبش الأصوات التخينة دلوقت . .

***

هكذا جاء المطرب الناشئ محمد عبد الوهاب وبدأ يعمل « البروفات » . . واقتنع الجميع بأن الرواية ستنجح فى هذه المرة ، وستفتح أمام الشيخ سيد منجماً من الذهب .

وفى ليلة الافتتاح الجديدة تكررت المفاجأة التى لم يتوقعها أحد : لقد أخفقت الرواية مرة أخرى ، برغم أنها من تلحين سيد درويش . . وغناء محمد عبد الوهاب.

وفى هذه المرة أدرك سيد درويش الدرس ، ولكن بعد فوات الأوان . فقد أدت خسائره الفادحة التى تحملها إلى القضاء على كل ما ادخره من أموال ، وأرغمته على بيع كل ما يملك ، ويعود ليبدأ من الصفر من جديد .

حدث هذا كله بسبب دخول سيد درويش ميداناً ليس من اختصاصه . إنه فنان عظيم ، وملحن عبقرى . . ولكنه لا يستطيع أن يدير فرقة مسرحية . هذه موهبة أخرى يجيدها أناس آخرون . لهذا قرر سيد درويش أنه من الآن فصاعداً لن يكرر التجربة ، وسوف يكتفى بعمله كفنان . . وملحن . . ليعمل لحساب الفرق الأخرى .

بلغت المسرحيات الغنائية التى وضع سيد درويش ألحانها نحو العشرين مسرحية ، وحقق بعضها نجاحاً فائقاً عندما عرضتها الفرق الأخرى ، أو عندما أعيد عرضها بعد ذلك بسنوات ، بما فى ذلك مسرحية « شهر زاد » التى أخفقت من قبل .


مسرح سيد درويش
شهرزاد
سيد درويش
محمد عبد الوهاب

وكان من أبرز مسرحيات سيد درويش الغنائية مسرحية « البروكة » ومسرحية « شهر زاد » ومسرحية « العشرة الطيبة » . والمسرحية الأخيرة كانت تصور حكم الأتراك والمماليك لمصر وتسخر من تحكمهم واستبدادهم إلى درجة أنه صدر قرار بوقف عرضها على الجمهور . ولكن هذا القرار ألغى بعد ذلك بفترة .

كان سيد درويش إنساناً عطوفاً كريماً باراً ، وكان عفيف اليد واللسان ، وكان أيضاً عزيز النفس ، أنوفاً ، لا يسمح لأحد بأن ينال من كرامته مهما علا مقامه أو ارتفع شأنه . ولكنه كان فى الوقت نفسه رقيقاً مرهف الحس سريع التسامح لا يحمل فى قلبه حقداً على أحد .

حدث مرة سوء تفاهم بينه وبين نجيب الريحانى عندما كان يعمل فى فرقته . وحاول الريحانى — صاحب الفرقة والمسئول عنها — مصالحة سيد درويش وإزالة أسباب غضبه ، ولكن بدون جدوى .

وبعد عدة أيام من الخصام بين الاثنين تدخل صديق مشترك لكليهما ، ودعا الموسيقار الشاب سيد درويش إلى منزله ، كما دعا فى الوقت نفسه نجيب الريحانى .

وفى الليلة المحددة ذهب الاثنان إلى الصديق المشترك بدون أن يعلم أحدهما أن الآخر سيكون موجوداً . فما إن التقى الاثنان فى منزل الصديق ، حتى بدأا يتعاتبان ويتناقشان . وبعد قليل ، توتر الجو بحيث احتدم النقاش ، ووجد الصديق صاحب البيت أنه لا فائدة من التصالح .

وفجأة . . بدأ عصفور الكناريا — الذى كان معلقاً فى قفصه داخل الحجرة — يغرد تغريداً جميلا . وهنا توقف سيد درويش مرة واحدة عن المناقشة وبدأ ينصت للعصفور ، ثم سحب عوده وطلب إطفاء الأنوار وبدأ يعزف على العود نغمات موسيقية حلوة استوحاها من صوت عصفور الكناريا . لقد نسى الفنان سيد درويش كل ما يتعلق بخلافه مع الريحانى وانهمك تماماً فى لحنه الجديد ، واستطاع عصفور الكناريا أن يحل فى لحظة واحدة مشكلة لم يستطع الصديق المشترك أن يحلها فى أيام .

* * *

وكان سيد درويش كريماً إلى درجة الإسراف . فمع أنه كان يكسب مئات الجنيهات شهرياً ، فإنه كان دائماً متوسط الحال ، لأنه كان ينفق ما يكسب أولا بأول . ومع ذلك لم يكن يفرط فى حق يتعلق بفنه أو بنتيجة عمله . لقد طلب منه صاحب إحدى الفرق المسرحية مرة أن يضع له موسيقى إحدى المسرحيات ، فطلب سيد درويش ستمائة جنيه مقابل هذا العمل ، وهو مبلغ ضخم بمقاييس ذلك العصر . وبالطبع رفض صاحب الفرقة هذا الأجر المرتفع ، ووجد من يلحن له المسرحية مقابل ثلاثين جنيهاً فقط . وفى المسرحية التالية عاد صاحب الفرقة إلى سيد درويش لعله فى هذه المرة يتواضع فى أجره . . ولكن الفنان الشاب رفض من جديد ، مع أنه يعلم مقدماً أن أى ملحن آخر سوف يقبل أجراً أقل كثيراً من أجره هو عن ألحانه .

وحينما كان سيد درويش يضع ألحانه كان أحياناً يقضى الساعات الطوال متجولاً فى الشوارع ، وأحياناً أخرى كان لا يستغرق فى التلحين إلا إذا حبس نفسه وقتاً طويلا فى حجرته بمنزله المتواضع فى القاهرة . كان يحبس نفسه أحياناً فترة تزيد على اليومين أو الثلاثة . . ينقطع خلالها تماماً عن الناس جميعاً . . مستغرقاً طول الوقت فى عزف ألحانه ثم تدوينها .



وفى شهر سبتمبر سنة ١٩٢٣ بدأ الشعب المصرى كله يحتفل بمناسبة كبرى يعبر فيها عن فرحته . لقد قرر البريطانيون أخيراً إخلاء سبيل زعيم الأمة سعد زغلول وصحبه ، وأصبح من المتوقع وصولهم من المنفى — إلى أرض الوطن بين يوم وآخر خلال ذلك الشهر . .

وبدأ سيد درويش ينهمك فى إعداد أوبريت وطنية يتناول فيها جهاد سعد زغلول كرمز لجهاد الشعب المصرى كله ضد قوات الاحتلال . كانت المقطوعة الرئيسية فى الأوبريت تحية للزعيم سعد زغلول ، وتقول :

مصرنا وطننا سعدها أملنا كلنا جميعًا للوطن ضحيه
أجمعت قلوبنا ، هلالنا وصليبنا أن تعيش مصر عيشة هنيه

وبعد أن انتهى سيد درويش من تلحين المقطوعة ، وبعد أن انتهى من تدريب المنشدين والعازفين على أدائها استعداداً لحفل استقبال سعد زغلول ، قرر سيد درويش أن يزور أهله وأصدقاءه بالإسكندرية ، وذلك قبل أن تصل باخرة الزعماء العائدين بيومين اثنين .

وفى ليلة وصوله ، زار أصدقاءه وأحباءه فى المدينة التى ولد فيها ، ثم عاد لينام فى منزل شقيقته .

وفى الفجر — وكان اليوم هو ١٥ سبتمبر سنة ١٩٢٣ — نهضت شقيقته لتوقظه . . فاكتشفت أنه قد انتقل إلى رحمة الله .

***

نعم . لقد مات سيد درويش قبل أن يرى بعينه عودة الزعماء الذين أراد أن يشارك الشعب فى الاحتفال بعودتهم . مات وعمره لم يتجاوز الحادية والثلاثين . مات وهو فى ريعان الشباب .

وكان موت الفنان الكبير على هذه الصورة مفاجأة لأهله ولمحبيه ولوطنه كله .

وعندما شيعت جنازته فى ذلك اليوم ، لم يكن فى زمرتها سوى عدد قليل من المشيعين ، بعد أن خرج الفنان العظيم من الدنيا مثلما دخلها . . فقيراً معدمًا . لقد كسب الكثير . . ولكنه أيضًا أنفق الكثير .

إنه لم يترك مليماً واحداً . ولكنه فى الحقيقة ترك ما هو أهم كثيراً من المال والثروة . . ترك فنًا عظيمًا يردده الشعب من بعده .

***

وفى ذكرى وفاته بعد ذلك نشرت الصحف مقالاً للكاتب الكبير المرحوم عباس محمود العقاد ، ينعى فيه سيد درويش قائلا :

« فى مثل هذا الشهر منذ عامين مات سيد درويش . وإذا قلت سيد درويش فقد قلت إمام الملحنين ونابغة الموسيقى المفرد فى هذا الزمان . مات والقطر كله يصغى إلى صوته . إن هذه الأمة قد فجعت فى رجل من أفذاذ رجالها المعدودين » .

حقًا . . لقد كان سيد درويش فنانًا للشعب كله .

طبع بمطابع دار المعارف

نوابغ العرب

مجموعة كتب مبسطة تعطى الأطفال والشباب فكرة عن نوابغ العرب.

صدر منها :

١ طه حسين

٢ أحمد شوقى

٣ سيد درويش

٤ سعد زغلول

٥ مصطفى كامل

٦ جمال الدين الأفغانى



دار المعارف

٢٤٤٤٧٨/٠١